

نظرية العدل عند الجبرتي

أ.د. حامد طاهر

لم يركز الباحثون كثيرا على الفكر السياسي للجبرتي كما ركزوا على تاريخه الهام — وهو بالفعل يستحق كل الاهتمام — والذي انفرد به ، من بين كل المؤرخين السابقين عليه بتسجيل هموم الشعب أكثر من احوال الحكام . وقد غطى تاريخه الفترة التي شهدت أهم حدثين وقعوا في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 وكان لهما اثرهما الواضح على مسيرة الشعب المصرى والمنطقة المحيطة به ، وهما : الحملة الفرنسية التي استمرت ثلاث سنوات ، وصعود محمد على الى السلطة الذى استمر 43 سنة ، ولأحفاده من بعده 106 اعوام .

وقد لاحظت ان الباحثين لا يتوقفون طويلا عند حياة الجبرتي وافكاره ، مع انها موضع اعتبار وغاية فى العمق . فالرجل عالم ازهرى ، تكون وتخرج فى ذلك الجامع
 جده من قرية (جبرت) باريتريا ، ثم الحق ابنه به حتى اصبح من علماءه ، وعلى دربهما سار الحفيد عبد الرحمن ، الذى ورث عن والده شبكة علاقات واسعة ، وثروة طيبة . لكنه تميز عن المازهريين من اساتذته وزملائه بحب التاريخ وجمع مواده ، سواء من المؤلفات التى لم تكن متوافرة فى عصره ، او من فوق شواهد القبور التى لم تنمح منها تواريخ الوفاة ! وهذا وذلك بالاضافة الى مشاهداته الشخصية ورؤيته المباشرة .

اما حياته العلمية فقد توزعت بين : رصد ذكى وواع لكل الماحداث التى وقعت فى عصره ، وتسجيل امين وواضح لها فى لغة بسيطة يفهمها جميع الناس . وبهذا كله اصبح الجبرتي واحدا من اكبر واشهر مؤرخى العرب والمصريين .

واما حياته الشخصية فيوجد بها حدثان مهمان ، وهما يتصلان ببعضهما . الاول حين اراد محمد على ان يدفعه ليكتب عنه تاريخا يمجده فيه ويشيد بمآثره ، لكن الجبرتي رفض هذا المطلب مرتين ، والواقع انه كان غير راض عن سياسة محمد على الاستبداد القمعية التى بدأت بمذبحة القالعة وكذلك نضى كبار علماء المازهر المذنبين ساعدوه فى تولي الحكم الى الواحات ! ثم الهمهم من ذلك :

انشقاقه عن الدولة العثمانية التي كانت تعد حتى ذلك الوقت رمزا لوحدة المسلمين وحاملة لراية الخلافة الاسلامية . وهنا يبرز الحدث الثاني ، حين قتل ابن الجبرتي (خليل) في حادث غامض ، يقال انه كان من تدبير محمد علي ، مما جعل المؤرخ الكبير يشعر بالماساة ويعتزل المجتمع ويمضغ احزانه في صمت لمدة ثلاث سنوات ، يتوفى على اثرها سنة (1240—1825).

وقد ترك الجبرتي لنا ، ولكل الاجيال ، عمليين جليين هما : تاريخه المسمى : (عجائب الآثار في التراجم والخبار) و(مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين)

التاريخية الهامة عن حياة مصر والمصريين في فترة مفصلية كانت تتأهب فيها لتنتقل من مرحلة الى مرحلة مغايرة لها تماما .

ولما بد من الاعتراف ان هذا البحث الذي اخصصه لنظرية العدل عند الجبرتي انما تبلور لدى من قراءتى المتكررة لمقدمة تاريخ الجبرتي ، والتي تقع في حوالى عشرين صفحة من القطع الكبير . وفيها تحدث عن سبب تاليفه ، وشكا من ندرة المراجع وصعوبة الحصول على المعلومات ، كما انتقد انصراف معاصريه عن علم ادراكهم للفوائد التي يمكن ان تستخلص منه .

لكن الذى لم يتحدث عنه بشكل صريح انما تمثل فى : ادانته غير المباشرة للظلم وتمجيده لفكرة العدل : التى هى اساس الملك . وكما ادار ابن خلدون مقدمته الشهيرة على اساس فكرة العصبية ، ادار الجبرتي مقدمته كلها حول فكرة العدل . فماذا كان يقصد من ذلك او بذلك ؟ — لا شك عندى انه كان يقصد نظام الحكم الفردى المستبد الذى ارساه محمد على فى مصر ، والذى غابت منه كل مظاهر الشورى والمعارضة .

ومما لاحظته بوضوح ان الجبرتي — العالم المازهرى الذى درس القرآن والسنة والفقه والتاريخ الاسلامى ، والذى شارك فى ديوان الشورى الذى انشأه نابليون فى مصر — كان نقا على القرارات الفردية التى يتخذها الباشا وحده او بمعونة بعض مستشاريه الاجانب ، فضلا عن احاطة نظامه بجيش قوى ، راح يقوم بمغامرات فى الخارج ، بينما الشعب المسكين يعانى من الفقر والمرض والجهل فى الداخل .

حا

لماذا نظرية وليست فكرة ؟

لأنني وجدت ان فكرة العدل عند الجبرتي تقوم على اساس فكرة اخرى هي فكرة الاستخلاف ، كما انها تستتبع افكارا اخرى ، مثل المساواة ، واستقرار الدولة ، والرفاه الاجتماعي ، وبالتالي الاستغناء عن تكاليف اسلحة القمع والحكم بالقوة ، لذلك فضلت ان اطلق عليها مصطلح (نظرية) وانا مطمئن لذلك تماما .

سبب آخر ، هو ان الفت انظار دارسي الفلسفة الاسلامية الى اهمية ان تاخذ هذه المنظر لة المتماسكة لدى الجبرتي مكانها الدائق بها بين النظريات السياسية في الفكر الاسلامي ، وان يوضع الجبرتي جنبا الى جنب مع الفارابي ، والماوردي ، وابن خلدون .

يصدر الجبرتي في فكرته عن العدل من منطلق قرآني خالص، فتراه لا يلجا - مثلاً - إلى المقولات الوضعية لدى الفلاسفة السابقين من أمثال أفلاطون وأرسطو وجان جاك روسو، والتي تقرر أن الإنسان مدني بالطبع، وإنما يقول: "أعلم أن الله تعالى لما خلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعائها، وبث فيها من كل دابة، وقدر أقواتها، أحوج بعض الناس إلى بعض في ترتيب معاشهم ومآكلهم، وتحصيل ملابستهم ومساكنهم لأنهم ليسوا كسائر الحيوانات، التي تحصل ما تحتاج إليه بغير صنعه" (مقدمة الجبرتي 12).

وحاجة الناس بعضهم إلى بعض ترجع إلى أن الله تعالى خلق الإنسان ضعيفاً، لا يستقل وحده بأمر معاشه: لاحتياجه إلى غذاء ومسكن ولباس وسلاح، فجعلهم الله تعالى يتعاقدون ويتعاونون في تحصيلها وترتيبها، بأن يزرع هذا لذلك، ويخبز ذاك لهذا، وعلى هذا القياس تتم سائر أمورهم ومصالحهم. (م.ج.12)

ولأن هؤلاء الناس قد ركز في نفوسهم الظلم والعدل، فقد مست الحاجة بينهم إلى سائس عادل، وملك عالم، يصنع بينهم ميزاناً

للعدالة ، وقانوناً للسياسة توزن به حركاتهم وسكفاتهم ، وترجع إليه طاعتهم ومعاملاتهم ، فأُنزل الله كتابه بالحق ، وميزانه بالعدل ، كما قال تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) (سورة الشورى آيه 17) وقد قال علماء التفسير : المراد بالكتاب والميزان : العلم والعدل .

وقد جعل الله تعالى هذا الأمر له مباشرة ، ومن غير واسطة ، تم استخلف في الأرض من الآدميين خلائف (خلفاء) ووضع في قلوبهم العلم العدل ، ليحكموا بهما بين الناس ، حتى يصدر تدبيرهم عن دين مشروع ، وتجتمع كلمتهم على رأى متبوع ، لأنهم لو تنازحوا في وضع الشريعة لفسد نظامهم ، واختل معاشهم . (م.ج.13) .

وهنا لا بد من التوقف عند معنى الخلافة الذى يعنى فقط ، وكما هو مشهور ، أن يذوب أحد مناب أحد فى المتصرف ، لكن الأصل أن يقف على حدود المستخلف (بكسر اللام) فى أوامره ونواهيه . وهذا يقتضى ألا يتصرف المستخلف أو الخليفة تبعا لهواه ، أو قوانينه الخاصة ، أو مصلحة الشخصية ، أو مجاملته لأقاربه ومعارفه ، وإنما عليه أن يراعى شروط هذا الاستخلاف وضوابطه . ومدار ذلك كله على تحقيق العدل .

يقول الجبرتي : وأما معنى العدل فهى خلق فى النفس أو صفة فى الذات تقتضى المساواة ، لأنها أكمل الفضائل ، لشمول أثرها ، وعموم منفعتها كل شئ . ويشرح الجبرتي معنى خلافة الإنسان عن الله تعالى فى الأرض من خلال تحديد معنى الخلافة عموما : بأن يذوب أحد مناب آخر فى المتصرف واقفا على حدود أوامره ونواهية .

وإنما يسمى الإنسان عادلاً لما وهبه الله قسطاً من عدله ، وجعله سبباً وواسطة لإيصال فيض فضله ، واستخلفه في أرضه بهذه الصفة ، حتى يحكم بين الناس بالحق والعدل . كما قال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) (سورة ص، آية 26) . وخلائف الله هم القائمون بالقسط والعدالة في طريق الاستقامة ، (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) (سورة المطلاق، الآية الأولى) .

والعدالة تابعة للعلم بأوضاع الأمور ، المعبر عنها في الشريعة بالمصراط المستقيم . ويلاحظ أن الجبرتي هنا لا يستخدم تعريف الفضيلة لدى أرسطو القائل بأنها وسط بين طرفين ، وإنما يستشهد بقوله تعالى (ان ربي على صراط مستقيم) (سورة هود ، الآية 56) إشارة إلى أن العدالة الحقيقية ليست إلّا لله تعالى ، فهو العادل الحقيقي ، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ووضع كل شئ على مقتضى علمه الكامل، وعدله الشامل ، وقوله ، صلى الله عليه وسلم: بالعدل قامت السماوات والأرض " إشارة إلى عدل الله تعالى الذي جعل لكل شئ قدراً ، لو فرض فارص زائد أعليه أو ناقصا عته لم ينتظم الوجود على هذا النظام بهذا التمام والكمال .

وهكذا يرى الجبرتي ويؤكد أن الله تعالى قد خلق الإنسان ولم يجعله مستقلا بنفسه، بل أحوج بعض الناس إلى بعض لتستقيم شئون معاشهم ، ثم وضع لهم ميزان الحق والعدل لينظموا بها أمور حياتهم . وهذا النظام البشرى الذى ينتظم بالحق والعدل يرتفع فوقه نظام كونى أكبر خلقه الله تعالى وقدره ونظمه أيضا بالحق والعدل .

إن جوهر نظرية الجبرتي فى فلسفة التاريخ تتمحور حول : العدل . فهو الذى تستقيم به حياة الإنسان ، ونظام المجتمع . وهنا يبرز سؤال هام : من الذى يعدل بين الناس ويطبق عليهم قيمة العدل ؟

يعتمد الجبرتي أيضا على القرآن الكريم ، الذي يقرر أن الله تعالى قد رفع بعض الناس على بعض . يقول (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم على بعض درجات) (سورة الأنعام ، آية 160) . وهنا يقوم الجبرتي بعملية ترتيب لأصناف الناس الذين يتدرجون - من حيث وظيفتهم - ليقوموا بتبصير الجميع بقيمة العدل ، وتطبيقه في حياتهم .

وهؤلاء هم :

1- الأنبياء

2- العلماء

3- الملوك وولاء الأمور

4- أوساط الناس

5- القائمون بسياسة نفوسهم

وفيما يلي توصيف مختصر لكل صنف ، تبعا لما ذكره الجبرتي :

1- الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، فهم أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، ومعادن حكم الكتاب ، وأمناء الله في خلقه . وهم السرج المنيرة على سبيل الهدى ، وحملة الأمانة عن الله إلى خلقه بالهداية . بعثهم الله رسلاً إلى قومهم ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ولما يتعدون حدود ما أنزل الله إليهم من الأوامر والزواجر ، ارشاداً وهداية لهم حتي يقوم الناس بالقسط والحق ، ويخرجونهم من ظلمات الكفر والطغيان ، إلى نور اليقظة والإيمان . وهم سبب نجاتهم من دركات جهنم إلى درجات الجنان .

وميزان عدالة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، الدين المشروع ، الذي وصاهم الله بإقامته في قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا) (سورة المشوري، أية13) . فكل أمر من أمور الخلائف : دنيا و آخرة ، عاجلا و آجلا ، قولما وفعلا ، حركة و سكونا - جار علي نهج العدالة ، ما دام موزونا بهذا الميزان ، ومنحرف عنها بقدر انحرافه عنه . ولما تصح الإقامه بالعدالة الما بالعلم ، وهو اتباع أحكام الكتاب والسنة .

وخلاصة هذا النص المهام أن ميزان العدالة الحقيقي الذي ينظم حياة الناس - موجود في الشرائع الملهية التي أنزلها الله تعالى علي أنبيائه ، وأن مفتاح هذا الميزان هو العلم بأوامر تلك الشرائع وزواجرها .

2-العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء . فهم فهموا مقامات القدرة من الأنبياء ، وإن لم يعطوا درجاتهم ، واقتدوا بهداهم ، واقتفوا آثارهم ،إنهم أحببوا الله وصفوته من خلقه ، ومشرق نور حكمته - فصدقوا بما آتوا به ، وساروا علي سبيلهم ، وأيدوا دعوتهم ، ونشروا حكمتهم : كشافا وفهما ، ذوتا وتحقيقا ، إيمانا وعلما ، بكمال المتابعه لهم ظاهرا وباطنا ، فلا يزالون مواظبين علي تمهيد قواعد العدل ، وإظهار الحق برفع منار الشرع ، وإقامة أعلام المهدي والإسلام ، واحكام مباني التقوي ، برعاية الأحوط في الفتوي تزهدا للرخص ، لأنهم أمناء الله في العالم ، وخلاصة بني آدم ، مخلصون في مقام العبوديه ، مجتهدون في اتباع أحكام الشريعة ، من باب الحبيب لا يبرحون ، ومن خشية ربهم مشفقون . مقبلون علي الله تعالى بطهارة الأسرار ، وطائرون إليه بأجنحة العلم والأنوار . هم أبطال ميادين العظمة ، وبلايل بساتين العلم والمكالمه (اولئك هم الدوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (سورة المؤمنون ، آية10) وتلذذوا بنعيم المشاهدة ، ولهم عند ربهم ما يشتهون .

هذه الأوصاف الرائعة لعلماء الدين ، التي يخلعها الجبرتي عليهم ، تكاد تجعلنا نحسب أنهم ملائكة ، أو أشباه ملائكة ، لكنه في الحقيقة إنما ينبههم إلى مسئوليتهم المضمخة التي يحملونها من أجل تحقيق العدل في حياة الناس ، ولن يتم ذلك إلا بشعورهم القوي أنهم ورثة الأنبياء ، والقائمون علي حفظ شرع الله ، وبيانته للأفراد والمجتمعات . ولما شك أن وضع الجبرتي لهم في مقام تحت الأنبياء مباشرة ، وفوق الملوك والأمراء في تصنيف المراتب دليل واضح علي تحميلهم المسئولية الاجتماعية والسياسية إلي جانب مسئوليتهم الدينية .

وينتهز الجبرتي فرصة مدحه الشديد للعلماء الصادقين المخلصين ليشير إلي بعض نقائص العلماء في عصره ، فيقول : " وما ظهر في هذا الزمان من الاختلال في حال البعض (من علماء الدين) من حب المال والجاه والرياسة والمنصب ، والحسد والحقد - لايقدر في حال الجميع ، لأنه لا يخلو الزمان من محقهم ، وإن كثر المبطلون ، ولكنهم أخفياء مستترون تحت قباب الخمول " (م، ج 0، 14) .

3-الملوك وولادة الأمور : وهنا أيضا كما في فقرة العلماء يغلب علي الجبرتي المطابع المعياري في الوصف ، لكن لا ينبغي أن تحكم علي معياريته تلك بالمثاليه المفروطة ، لأنها إنما تضع النموذج المعياري الجميل لكي تدين قبح الواقع من حوله فهو يتحدث عن العلم بينما الجهل ضارب حوله من كل جانب ، ويتحدث عن العدل في حين أن الظلم منتشر في كل المجتمعات الإسلامية . وعلي هذا نفهم أن تمجيده للعلم إنما يقصد به اداته المتشبهين بالعلماء وليسوا منهم ، وكذلك تمجيده للملوك العادليين إنما يقصد به أدانته الكاملة للملوك وأولي الأمر الظلمة ، الحريصين أشد المحرص علي تحقيق مصالحهم الشخصية ، واشباع رغباتهم الخاصة . وبالمطبع الاسقاط هنا واضح على الحاكم في عصره .

وهكذا يري الجبرتي أن الملوك وولاه الأمور (الحقيقيين) هم الذين يراعون العدل والانصاف بين الناس والرهايا ، توصلنا إلي نظام

المملكة، وتوسلا إلى قوام السلطنة، لسلامة الناس في أموالهم وأبنائهم، وعمارة بلدانهم. ولولا قهرهم وسلطانهم لتسلط القوي علي الضعيف، والدين علي الشريف.

فراس المملكة وأركانها، وثبات أحوال الأمة وبنائها: العدل والانصاف، سواء كانت الدولة اسلاميه أو غير اسلاميه. فهما أس كل مملكة، وبنيان كل سعادة ومكرمة، فإن الله تعالى أمر بالعدل، ولم يكتف به حتي أضاف إليه الإحسان (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) (سورة النحل، آيه 90).

ويؤكد الجبرتي أنه بالعدل يتحقق ثبات الماشياء ودوامها ، وبالجور والمظلم خرابها وزوالها . فإن الطباع البشريه مجبولة علي حب الانتصاف من الخصوم ، وعدم الانتصاف لهم والمظلم . والجور كامن في النفوس ، لا يظهر إلا بالقدرة ، كما قال (المتنبي) :

والمظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة ، فالعلة لا يظالم

فلولا قانون السياسة وميزان العدالة ، لم يقدر مصل علي صلاته ، ولما عالم علي نشر علمه ، ولما تاجر علي سفره . ورحم الله عبد الله بن المبارك ، الذي قال :

لولا المخالفة ما قامت لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

ويتساءل الجبرتي : ما حد الملك العادل ؟ فيقول - اعتمادا علي أقوال بعض الصوفية - هو من عدل بين العباد ، وتحذر من الجور والفساد .

فمن عدل في حكمه ، وكف عن ظلمه ، نصره الحق ، وأطاعه الخلق ، وصفت له النعمي ، وأقبلت عليه الدنيا ، فتهنأ بالعيش ، واستغني عن الجيش ، وملك القلوب ، وأمن الحروب ، وصارت طاعته فرضا ، وظلت رعيته جندا ، لأن الله تعالى ما خلق شيئا أحلي مذاقا من العدل ، ولما أروج إلي القلوب من الانصاف ، ولما أمر من الجور ، ولما أشفع من الظلم . (م.ج.16) .

وفي رأيي أن الجبرتي بهذه الكلمات القوية يستطيع أن يحتل مكانة متميزة للغاية بين أكبر فلاسفة السياسة الذين مجدوا قيمة العدل ، وأدانوا الظلم في مختلف صوره وممارساته ، ليس فقط على مستوى العالم الاسلامي ، وإنما على مستوى العالم كله .

ويواصل الجبرتي بيان واجبات الملك وولادة الأمر بضرورة مراعاة العدل كما وردت أصوله وتعاليمه في القرآن الكريم والسنة النبوية . لأن الملك يتصرف في ملك الله وعباد الله بشريعه نبيه ورسوله ، نيابة عن تلك الحضرة ، ومستخلفا عن ذلك الجناح المقدس ، ولما يآمن من سطوات ربه وقهره ، ما يخالف أمره ، فينبغي أن يحذر عن الجور والمخالفة ، والظلم والجهل ، فإنه أحوج الناس إلي معرفة العلم ، واتباع الكتاب والسنة ، وحفظ قانون الشرع والعدالة ، فإنه منتصف لمصالح العباد ، واصلاح البلاد ، وملتزم بفصل خصوماتهم ، وقطع النزاع بينهم ، وهو حامي الشريعة بالاسلام ، فلا بد من معرفة أحكامهم ، والعلم بحلالها وحرامها ، ليتوصل بذلك إلي إبراء ذمته ، وضبط مملكته ، وحفظ رعيته ، فيجتمع له مصلحة دينه ودنياه ، وتمتلئ القلوب بمحبته والدعاء له ، فيكون ذلك أقوم لعمود ملكه ، وأدوم لبقائه ، وأبلغ الأشياء في حفظ المملكة : العدل ، والإنصاف علي الرعية .

ومن هذا النص ، يبدو الجبرتي أيضا حريصا علي بيان أن العدل هو أساس الاستخلاف ، وأن هذا الاستخلاف لا ينطبق تماما علي نظام الخلافة الذي عرفه المسلمون ، وتوارثه الأبناء عن الآباء بمجرد صلة الدم والمقاربة ، وليس بالاستحقاق . وإنما هو الاستخلاف الإلهي لمن يصلح من البشر لقيادة مجتمعهم علي أساس شرائعه السماوية ، وهكذا يبدو من حديث الجبرتي عن الاستخلاف والخلافة أنها استحقاق للأحق ، أي المقادر علي تحمل ذلك التكليف الإلهي بتحقيق العدل والإنصاف بين الناس ، وليس بمجرد حمل لقب عن طريق الميراث ، وتنظيم بيعة لا يشارك فيها بحرية واختيار كامل كل أفراد المجتمع. ويبقى بعد أن يصبح الملك ملكا أن يحكم بالشرعية ، وهذا الحكم يتطلب معرفة الأحكام ، إذ كيف يحكم بين الناس ويفصل في خصوماتهم من لا يعلم الحلال والحرام ، ويميز بدقة بين الخطأ والصواب ؟!

وإذا كانت فكرة (الحاكم - العالم) تذكرنا بفكرة كل من افلاطون والفارابي ، فإنها تصدر عند الجبرتي من تصور قرآني خالص ، يبدأ من استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض ، ثم تكليفه بإقامة العدل بين رعاياه ، وتحقيق مصالحهم التي بها تنتظم شؤون معاشهم ، وتكتمل الغاية من خلقهم .

ومن المأثورات التي يوردها الجبرتي لتأكيد قيمة العدل عند المحاكم : الأقوال التالية :

- قيل لحكيم : أيما أفضل العدل أم الشجاعة ؟ قال : من عدل استغني عن الشجاعة ، لأن العدل أقوى جيش وأهناً عيش .

- وقال الفضيل بن عياض : النظر إلي وجه الإمام العادل عبادة . وإن المقسطين عند الله علي منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن .

- وقال سفيان الثوري : صنفان إذا صلحا صلحت الأمة . وإذا فسدا فسدت الأمة : الملوكة والعلماء . والملك العادل يقضي بكتاب الله عز وجل ، ويشفق علي الرعية شفقة الرجل علي أهله .

- وروي ابن يسار عن ابيه قال : سمعت رسول الله ، صلي الله عليه وسلم يقول : إيمان وال ولي من أمر أمتي شيئاً ، فلم ينصح لهم ، ويجتهد كنصيحته وجهده لنفسه كبه الله علي وجهه يوم القيامة في النار .

المصنف الرابع : أوساط الناس :

وهم الذين يراعون العدل في معاملاتهم ، وأروش (جمع ارش وهى دية الجروح) جناباتهم بالانصاف ، فهم يكافئون الحسنة والسيدة بمثلها .

والواقع أننى أجهدت نفسى طويلا في تحديد هذا المصنف الذي لم يكتب عنه الجبرتي سوي سطر ونصف ، وتركه عاما في أولئك الذين يراعون العدل في معاملاتهم ، ويقتصون بالعدل والانصاف ممن اعتدي ظلما علي الآخرين .

هل يريد بهم : القضاة ، أم : قواد العسكر ؟ أم حكام القرى الصغيرة ؟ وايا كان المقصود ، فإن مراعاة العدل مازالت موجودة لدي هذا المصنف .

المصنف الخامس : القائلون بسياسة نفوسهم ، وتعديل قواهم ، وضبط جوارحهم ، وانخراطهم في سلك العدل ، لأن كل فرد من أفراد الإنسان مسئول عن رعاية رعيته التي هي جوارحه وقواه . كما ورد : "كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته " كما قيل : " صاحب المدار مسئول عن أهل بيته وحاشيته " .

ومن الواضح أن المقصود هنا هم جميع أفراد الرعية أو الشعب . وكل منهم مسئول عن تحقيق العدل فيمن يتولي أمورهم تبعاً لدرجة القرب منه . ويؤكد الجبرتي أن عدالة الشخص لا تؤثر في غيره " ما لم تؤثر أولاً في نفسه ، لأن التأثير في البعيد - قبل القريب - بعيد . والله تعالى يقول : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) (سورة البقرة آية 44) .

ويعتمد الجبرتي علي قوله تعالي (ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (سورة الماعرف ، آية 129) ليؤكد اتصاف الإنسان بالخلافة . وبالتالي : لا تصح خلافة الله إلا بطهارة النفس ، كما أن أشرف العبادات لاتصح إلا بطهارة الجسم . فما أقبح بالمرء أن يكون حسن جسمه باعتراف قبح نفسه . وإذن فإن طهارة النفس شرط في صحة الخلافة ، وكمال العبادة . ولا يصح نجس لخلافة الله تعالي ، ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس ، قد أزيل رجسه ونجسه ، فللنفس نجاسة ، كما أن للبدن نجاسة . فنجاسة البدن يمكن ادراكها بالبصر ، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة ، كما أشار إليه بقوله تعالي (إنما المشركون نجس) (سورة التوبة ، آية 28) ومما يؤكد الجبرتي في مشروعية استحقاق الإنسان الخلافة الإلهية أن الخلافة هي الطاعة . والماقتدار علي قدر طاعة الإنسان في اكتساب الكمالات النفسية والاجتهاد بالإخلاص في العبودية ، والتخلف بأخلاق الربوبية . ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر العقل ، فكل إزاء بالذي فيه ينضح . ولهذا قيل : " من طابت نفسه طاب عمله ، ومن خبثت نفسه خبث عمله " وقيل في قوله ، صلي الله عليه وسلم : " لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب " : انه اشار بالبيت إلي القلب ، وبالكلب إلي النفس الأماراة بالسوء ، أو إلي الغضب والحرص والحسد وغيرها من الصفات الذميمة المراسخة في النفس ، ونبه بأن نور الله لا يدخل القلب إذا كان فيه ذلك الكلب كما قيل ومن يربط الكلب العقور ببابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب !

وإلي الطهارتين : طهارة النفس وطهارة الفعل ، يقول الله تعالي (وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) (سورة المدثر ، الآيتان 5،4) ويختم الجبرتي هذه النقطة بأن الذي تطهر به النفس حتي تصلح للخلافة ، وتستحق به ثوابه إنما هو : العلم (م.ج.18) .

لكن الجبرتي يعود فيعقد فصلا هاما حول اسباب هلاك الملوك ومن أهمها:

- اطراح ذوي الفضائل ، واصطناع ذوي الرذائل .

- والاستخفاف بعظمة المناصب ، والاعتزاز بتزكية المادح . ثم يضع عدة مبادئ في صورة حكم فلسفية وسياسية لكي يعتبر بها الملوك :

- من نظر في العواقب سلم من النوائب .

- زوال الدول باصطناع السفل .

- من استغنى بعقله ضل ، ومن اكتفى برأيه زل .

- ومن استشار ذوي الألباب سلك سبيل الصواب .

- ومن استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول.

- من عدل في سلطانه استغني عن أعوانه .

- عدل السلطان أنفع للريعية من خصب الزمان .

- الملك يبقي علي الكفر والعدل ولما يبقي علي الجور والايمان .

- من كبرت همته كثرت قيمته

- لا تثق بالدولة : فإنها ظل زائل ،

ولما تعتمد علي النعمة ، فإنها ضيف راحل

- الدنيا لا تصفو لشارب ، ولما تفي لصاحب

- والخلافة لا يصلحها إلما التقوي ،

والريعية لا يصلحها إلما العدل .

- من ضعفت سياسته بطلت رياسته ، ومن جارت قضيته ضاعت رهيته . ويذكر الجبرتي الآفات التي تصيب المملوك والوزراء والجنود والناس عموما فيقول :

- آفة المملوك سوء السيرة

- وآفة الوزراء خبث السريرة

- وآفة الجند مخالفة القادة

- وآفة الرعية مخالفة السادة

- وآفة الرؤساء ضعف السياسة

- وآفة العلماء حب الرياسة

- وآفة القضاة شدة الطمع

- وآفة العدول قلة الورع

- وآفة القوة استضعاف الخصم

- وآفة الجرئ إضاعة الحزم

- وآفة المنعم قبح المن

- وآفة المذنب حسن المظن

وبهذه المبادئ العامة تكتمل دائرة الفكرة السياسية حول العدل لدي الجبرتي . وهي النظرية التي تبدأ من القرآن الكريم ، الذي قرر استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض ، ثم حدد له الطريق الذي يسلكه من أجل تحقيق هذه المخلافة التي تهدف إلي أمرين : عبادة الله تعالى ، وتعمير الأرض لتوفير صحة هذه العبادة . أما سياسة الناس فينبغي أن تقوم علي العدل . والعدل يعني المساواة بين جميع الأفراد دون مجاملة أو محاباة .

